

رحلة إلى الهند

للدكتور عبد الوهاب عزام بك

عبد كلية الآداب

— ١ —

كان السفر إلى الهند أمنية تطاول عليها الزمان ، وماطلت بها الأيام . وكدت أظفر بها سنة ١٩٣٩ م ، إذ ندبني جامعة فؤاد لتمثيلها في مؤتمر للمستشرقين كان يقدر أن يجتمع في حيدرآباد صيف ذلك العام ، ولكن الحرب العالمية التي ثارت حالت دون الأمنية .

وكان شوقى إلى الهند يزداد كلما زادت معرفتى بها ، والتفانى بأهلها ، واطلاعى على لغاتها وآدابها .

فلما دعت الجامعة المليية الإسلامية إلى احتفال لها في دهلي وجاءت الدعوة إلى جامعة فؤاد ، كما بلغتني دعوة خاصة ، وجدتها فرصة تنضم ، لولا أن الوقت كان قد ضاق عن التأهب لمثل هذه الرحلة . فاعتذرت جامعة فؤاد .

ثم جاءت الدعوة إلى مؤتمر العلاقات الآسيوية ، وانتهى الأمر إلى أن ندبني الحكومة لشهود المؤتمر رقيقاً . وكان هذا الندب قبيل الموعد الذى ضرب للسفر على غير اختيار ، وإنما حددته مواعيد الطائرات . فلبيت على بعد الشقة ، وهيبة الطريق ، وضيق الوقت ، استجابة لما فى النفس من تطلع إلى الهند وحرص على زيارتها .

— ٢ —

ذهبنا إلى مطار المظلة والساعة واحدة بعد ظهر يوم الثلاثاء الثامن عشر من آذار (مارس) سنة ١٩٤٧ آخذين أهبتنا للسفر على إحدى طائرات الشركة الإنكليزية . فأخبرنا ، بعد أن حان الموعد ، أن الرياح غير ملائمة ، وأن السفر أرجى إلى صباح الغد ، وجعلت الساعة الخامسة موعداً لرجوعنا إلى المطار .

وأخذنا مكاننا في الطائرة والساعة خمس ونصف ، وأغلق الباب وصر بنا أحد ضباط الطائرة يقول : احزموا أوساطكم ، وأشار إلى أحزمة مثبتة على المقاعد .

قلت : إن هذا أوان الحزم . وتوقعت أن تيسد الطائرة في

سيرها ميداناً لا يثبت فيه على مكانه إلا من احترم ، فحاشت نفسى وجرت الطائرة على الأرض فوقفت فسارت فاستقامت صاعدة ، وفى النفس ملؤها هيبة وإعجاباً . وصر علينا الضابط مشيراً أن نحمل الأحزمة ، فعرفت أن هذا الحزم احتياط حين صعود الطائرة لحسب ، فسررتى عن نفسى .

وتأملت الطريق بعد حين ، فإذا ببداة متشابهة لا ترى العين من معالمها إلا قليلاً ، وتواتت مناظر متقاربة ، وأشباح متشاكلة .

وكرت ساعات بين التفكير والنظر إلى الأرض وكتابة بعض الملاحظات ، حتى اختلف المنظر قليلاً ، ولاحت حفرة ضيقة ثم اتسعت ، وبدا عمران وأبنية ، فظننت أنها قرية في الصحراء ، وشرعت أفكر ما عسى أن تكون هذه القرية الصحراوية ! فقطع على الفكر قناة ماء طويلة متعرجة عرضها فى رأى العين خطوة واحدة ، فميجت من هذه القناة أيضاً ! ولم أملك أن سألت رفيقاً أسمى : ما تظن هذه ؟ قال : أظنها الفرات . وما فكرت أنا فى الفرات لتوهى أنا منه جد بعيدين ، وما قدرت أن الطائرة طوت ما بين النيل والفرات فى أقل من أربع ساعات . فرحت بالفرات وأخذت أتأمل قراء وزروعه ، وهجعت الطائرة على ماء وسيم تختلف على السبراشكاله ومناظره ، فعرفت أنه البطائح التى تسمى فى العراق اليوم « الأهوار » ، وما قدرت من قبل أن هذه « الأهوار » تمتد هذه المسافات الشاسعة وتسير الطائرة قريباً من نصف ساعة .

شغلتنى الأهوار بألوانها وأعشابها وقصبها ، وما يبدو للعين خافتاً من جزرها ودورها ، حتى حومت الطائرة هابطة ، حتى استقرت على أرض البصرة ، وكانت الساعة عشراً بحسب مصر وإحدى عشرة بتوقيت العراق . ليس بين القاهرة والبصرة فى سرعة الطائرات إلا أربع ساعات ! إنها لإحدى الكبر !

أطلت نفوسنا بالقرار على الأرض ساعة تغدينا فيها ، ثم استأنفنا الطيران صوب كراتشى ، والمسافة بينهما نحو ألف وأربعمائة ميل . وقد توجهت الطائرة إلى الجنوب الشرقى على طريقها المعتاد ، وبعد برهة أطلمنا ضابط على الخريطة كدأب ضباط الطائرات مع مسافريها ، وأخبرنا أنا نجتاز الآن الرأس البارز فى الخليج الفارسمى شرق جزيرة العرب

قلت : كيف وليس هذا طريقنا المخطوط على الخريطة ؟ قال : الرياح غير ملائمة هناك ، فمدلنا إلى هذا الطريق .

ولما قاربنا دهل ، وظننا أن السفرة انتهت ، والمشقة زالت ،
وشرعنا نعد الأميال والدقائق ، أخذت طائرنا ترجف ؛ تهبط
فتملو فلا تستقر في مستوى . وكان هذا أول ما مهدت من
تدئين^(١) الطائرات ، فأخذ مني الخوف ، وبلغ مني الدوار ، وكان
أمامي رفيق ركب ممنا في كرتشي ، فرأيت أغمض عينيه ، وأعربت
صفرة وجهه عما به . وما زالت طائرنا تهبط كثيراً ، ثم نجهد
مساعدة لتبلغ مستواها ، فهبط بها الهواء كرة أخرى ، حتى مر
بني شاب من خدام الطائرة ، فلم أملك أن قلت له : ما هذا ؟
قال : يا سيدي نحن هابطون بعد دقائق قليلة . وأشرت إلى أحد
الرفقاء سائلاً متمللاً فقال : نحن في إقليم جبلي ، والهواء حار ،
ومن هذا كان هذا الاضطراب .

هبطت الطائرة في دهل بعد أن فعلت بنا ما فعلت ، وختمت
رحلتنا بما أروينا ...

(للكلام صلة) عبد الوهاب عزازم

(١) دهن الطائرة : طار وأسرع السقوط في مواضع متقاربة وواتر
ذلك (لسان العرب)

ورأيت مسخوراً غاتية موحشة اجتريتها ، فسايرنا الساحل
حيناً ، ثم عبرنا الخليج ، فسايرنا أكثر الوقت ساحل إيران
المشرف على المحيط الهندي ، وهو ساحل ضيق تشرف عليه جبال
عالية تفصل بينه وبين سائر الأرض . ولهذا لم يأتف الإيرانيون
البحر ، ولا صعدوا على ركوبه ، فلم يكونوا في تاريخهم من أم
البحار ، المولمين بالأسفار فيها .
والساحل متشابه ، لم أتبين من معالمه إلا آثار سيول أو أنهار
متممجة تسيل من الجبال إلى البحر .

وما زلنا بين تأمل في الأرض التي نظير فوقها ، والجبال التي
نحاذيها ونساميها ونملوها ، والبحر الذي تسيره حتى ستر الليل
المشاهد إلا أشباحاً خفية . فكان مسرح الطرف بين الظلام الذي
نملوه ، وبصيص الكواكب التي تملونا .

ولاحت كرتشي في ظلام الليل في أضواؤها منتشرة على البر
والبحر ، فكانت منظراً عجيباً مؤنساً في هذا السفر الموحش ،
وبشرى بالوصول منيرة في العين وانقلب ، ورأيت على مقربة من
الساحل جبلاً في البحر عالياً عليه منارات ومصابيح زادت في جلال
الرأى وجماله .

وددت الطائرة كثيراً حتى توهمت أنها لا تهتدي إلى مهبطها ،
ثم أسففت حتى لست الأرض وزافت^(١) حتى استقرت عليها .
ولله ما أجل أن يحس الراكب وقع مجلاتها على الأرض بعد أن
انقطعت بينه وبين الأرض الأسباب ، وتداولته الرياح ساعات
طويلة . وكانت الساعة بيتاً بتوقيت البصرة ، وثمانياً ونصفاً
بتوقيت الهند .

- ٣ -

استرحنا ليلتنا في فندق قريب من المطار ، وغدونا إلى الطائرة
فاستقلت والساعة ثمان وربع تؤم بنا دهل ، فطردنا فوق صحراء
السند ، وأرض أخرى معمورة لم نر فيها إلا قرى صغيرة يكاد
البصر لا يدررها .

وقد وجدت في مذكري هذه الجملة :

« نحن الآن على بعد مائة وسبعين ميلاً إلى الجنوب الغربي
من دهل ، والارتفاع عن البحر تسعة آلاف قدم ، وعن الأرض
ثمانية آلاف وخمسمائة ، والساعة عشر ونصف ، (يا لطيف
يا سلام) »

(١) زافت الحماة : مفتت سحب ذهبها على الأرض .

رسالة الفكر الحر

مجموعة رسائل في الأدب والعلم والتاريخ والفلسفة
للاستاذ إسماعيل مظهر

صدر منها :

١ - عصر الاشتراكية ثمنه ٨ صاعاً

٢ - القانون والحرية في حضارة

الغرب ثمنه ٤ صاعاً

الرسالة الثالثة تظهر قريباً

طوقناه القمر في الصراع بين الماديات والعلم

ملزمو الطبع والنشر أصحاب

دار إحياء الكتب العربية

عيسى البابي الحلبي وشركاه - ت ٥٠٨٥٦ بمصر